أساليب التفكير :

التفكير الفلسفي

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز الميجي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الفلسفة والشعر :

بل إن أطول الفلاسفة باعاً في ميدان التأمل ليس بمنجاة من شطحات الخيال ، ونزوات الشعر ، وضغط القصائد الكبيرة — تعصف بينائهم الفلسفي بين حين وآخر حتى لتكاد من قوتها لدى البعض أن تسلكهم في عداد الشعراء المتفلسفين ، أو الفلاسفة الشاعريين . فذاك أفلاطون : برغم عبقريته الفلسفية ، وتناسق مذهبه ، وتكامل آرائه ، تعصف به في رحلة الفكر أنواء الخيال ، وتهب عليه في جفاف البحث العقلي نسمات شاعرية تتبدى في نظرية المُثُل وما يورد لها من تشبيهات ، كقصة الكهف المشهورة التي ترى الحياة الدنيا أناسا يحيون في كهف مظلم ، مقيدين بالأغلال حتى ليقضون العمر مولين ظهورهم لباب الكهف لا يستطيعون حراكاً ، وموكب الحياة والأحياء ماض في سبيله أمام باب الكهف لا يرون منه غير أشباح واهية ترسلها شمس قوية من خارج على جدار الكهف . فهم لطول العهد بتلك الأشباح ولحرمانهم من معرفة الأصول التي تنبعث عنها يظنون لجهلهم وجمود فكرهم أنها الحقائق . كذلك شأننا في الحياة الدنيا ، طال مقامنا فيها ، وكبلتنا أغلال الحس وسلاسل البدن ، فتوهمنا الكائنات المادية حقائق واقعة ، في حين أنها صور زائلة لحقائق باقية ، ممسوخ مشوهة لمثل كاملة ؛ ثم يمضي أفلاطون الحالم بعالم كامل تتحقق فيه المثل العليا التي يطمح إليها ، مثل الحق والخير والجمال ، ليتمثل عالماً آخر غير عالمنا يجد فيه ملاذ من نقائص عالمنا ، ثم يدعو الناس أن يحلموا معه في قول شاعري حلو يورده في محاورته « المأدبة » :

« إن ما يعطي قيمة لهذه الحياة إنما هي مشاهدة الجمال السرمدي نقياً لا تشوبه شائبة ، بسيطاً لا تغطيه أشكال وألوان مصيرها إلى الفناء . هذي مراحل الحب يقطعها في البحث عن ضالته ، وشفاء لغليله ، فهو واسطة ومساعد يحفز النفس إلى الكمال ، ويهيج الذكرى القديمة : ذكرى المثل والحياة السماوية الأولى ، ذكرى الفردوس المفقود نحن إليه بكل جوارحها . فالمحب الحقيق الكامل هو الفيلسوف يزدري الجمال الزائل الذي يملأ النفس جنوناً ليتعلق بالجمال الدائم . »(١)

وبعد ذلك تأمل أفلاطون ، فلسفة تمتزج بالوجدان : فيها تطلع إلى الجمال ، فيها حنين إلى عوالم مبتغاة ، فيها ذكريات وحب وأمل نبيل . ولا عجب فقد زاول أفلاطون الشعر في شبابه ثم صرفه عنه أستاذه سقراط .

وهذا برجسون في العصر الحديث يتميز أسلوبه بطابع رقة وروح فنية تتبدى في منهجه الفلسفي الذي يسلكه في الوصول إلى الحقيقة ، مقابلاً به منهج الاستدلال العقلي الذي يشوه الواقع ولا يزودنا منه إلا بوجهة نظر سطحية تجريدية ؛ ذلك هو منهج الحدس أو الذوق (intuition) كما يحلو للبعض أن يسميه . ويعرفه برجسون بأنه نوع من التعاطف العقلي يتسنى المرء بواسطته كنه الأمور وجوهرها .

وابن سينا — الشيخ الرئيس — يصوغ نظريته في النفس وخلودها وسبق وجودها على الجسد في قصيدته العينية المشهورة

لتمر بأصوات أناس ولتتقمص صورهم وتحرك أعضاءهم وتتشكل بأشكالها فلابد لها من أن تحتفظ بهذه الذكرى . أما إذا كتب المؤلف مسرحيته دون مراعاة لفكرة التحقيق الحالي فقد فقد كيانه ، وما عليه إلا أن يفتش له عن مهنة أخرى .

فالكاتب المسرحي تابع لأمكانيات المسرح ، تابع لأمكانيات الممثلين ، وبعد أن يصفي حسابه مع الأسلوب ومع قوانين الفن المسرحي (من الحركة ، وتسلسل الحوادث ، والتتابع المنطقي والفن المرئي . . . الخ) يرى لزاماً أن يلجأ إلى صاحب الملابس والزخرف والكهربائي والميكانيكي والمخرج ، ثم بعد كل هذا بل قبل كل هذا إلى الممثل . ولا شك أن فن الكاتب يصاب بأفدح الخسائر إذا كان التناسق بين هذه الوسائل مفقوداً أو كان ما في المؤلف من نقص مما يتيح للمخرج أو الممثل أن يشتغل لحسابه الخاص .

محمد القصاص
دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس

(١) نقلا عن الأستاذ يوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية .

التي يبين فيها كيف هبطت النفس إلى الجسد من عالم آخر على الرغم منها ، وكيف سجنت في ذلك الجسد ، وكيف تسعى إلى التحرر منه ، والعودة ثانية إلى العالم الثاني ، عالم الروح الخالد .

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تمنع وترفع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات توجع

* * *

إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب ... لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفيـــة ... في العالمين خرقتها لم ترقع

ذلك شعر وخيال ، ومع ذلك فقد كان الشيخ الرئيس فيلسوفاً لأنه يأبى إلا أن يبرهن على روحانية النفس وجوهريتها وخلودها برهنة منطقية .(١)

أما محي الدين بن عربي ، زعيم التصوف الفلسفي في الإسلام فيتصوغ جل مذهبه قصائد شعرية ، زاخر بحر الوجدان ، مشبوب العاطفة ، يعبر عن نظرية وحدة الوجود التي ترى الكون والله كائناً واحداً لا وجودين منفصلين ، وترى كل موجود مظهراً من مظاهر الله أو تجلي يتجلى به الله لعباده حتى ليستوي في نظره كل موجود ويتحد كل دين ، يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

* * *

وبعد فلست أريد أن أقحم نفسي في الأدب فأتمثل بشعر أبي العلاء المعري أو رباعيات عمر الخيام أو أناشيد طاغور الصوفية لأبين بعض ما تنطوي عليه من فلسفة عميقة تكسب شعر هؤلاء رصانة وتزيده رونقاً وبهاء . إنما أريد أن أخلص إلى أن النشاط الفكري تيار معقد متشابك متعدد الاتجاهات ، وهو مع ذلك تيار دائب الحركة مستديم الفوران . فالعقل منذ نشأته ، يحاول معرفة الواقع كما هو ، وإرجاع المعلول إلى علته أو كشف الستر عن غايته . فإن كان الإنسان طفلا في بداوة الفكر وطراوة الذهن فالخيال يزود إياه بتفسيرات لا أساس لها من الصحة ، والإيمان مثبت لتلك التفسيرات لا لشيء إلا لأنها تصادف هوى في نفسه ، فلا يصبح — وقد آمن — في حاجة إلى البحث عن دليل أو برهان . وما الداعي إليهما وقد اطمأن قلبه إلى ما وصل إليه من تفسير . ألا ترى إلى المصري القديم مطمئناً كل الاطمئنان إلى خلوده ؟ لا خلود روحه فحسب ، بل خلود جسده أيضاً ؟ واثقاً من البعث حيث يلقى جزاء ما كسب وحساب ما اكتسب ؟ حيث يستمتع بما استمتع به في هذه الحياة من نعيم ، بل حيث يلقى العوض عما حرم منه فيها من سراء ؟!

ما سر يقينه ذلك الذي لا يقبل الشك ؟! رغبة في الخلود كامنة في كل نفس ، وسعي خلق إلى اللذة الكبرى التي تقصر منها حياة الأرض القصيرة الناعسة بالمتاعب والآلام . رغبة عنيدة ، وهوى مستبد ، وطموح متطلع إلى المجهول ، تسخر جميعها المطية القلول ، الخيال ، ليفسر الكون ويكشف عن سر الوجود . بيد أنه عندما تكاثر المعارف الواقعية وتبدو الحقائق الخافية ، ويكتشف الإنسان وهمه فضلاً عن جهله ، لا يجد مناصاً من مواجهة الواقع ، والسعي إلى رد المعلولات إلى العلل ، ونسبة المسببات إلى السبب ؛ تارة في تحرر تهافي من الأهواء وتنحية للخيال ، وتارة في تحرر جزئي منها دون تملك تام لناصية الأمور . إن فضل المرء ذلك قيل إنه عالم أو فيلسوف : عالم إن اكتفى بتقرير الواقع وإرجاع الظواهر المحسة إلى أسبابها ، وسعى إلى اكتشاف قوانين العالم الطبيعي دون غيره باستخدام منهج الملاحظة المباشرة والتجربة المحض ؛ وفيلسوف إن أوغل في التفسير متعدياً حدود العالم الطبيعي ، متجاوزاً البحث في الجزئيات إلى البحث فيما هو أعم وأرحب ، مستخدماً منهج البرهان المنطقي والاستدلال العقلي . أميز هنا بين الفلسفة والعلم برغم أن العصور القديمة بل والحديثة حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي لم تألف هذا التمييز فكانت جماع المعارف النظرية الحرة من الأسطورة تنضوي تحت كلمة فلسفة أو حكمة ؛ ولم يميز العقل الإنساني ذلك التمييز الحاسم بين شطري النشاط الفكري المتكامل ، إلا في مطلع القرن السابع عشر ، أي في أعقاب عصر النهضة بما خلق من نهضة علمية تجريبية قامت على أنقاض الاتجاهات الفلسفية التقليدية .

عبد المنعم المليجي
المدرس بمدارس حلوان الثانوية

(١) النجاة لابن سينا .